البليغ

" اللهم هل بلَّغت " !

هذه هي اللازمة التي رددها النبي ﷺ في أطول خطبه الأخيرة ، وهي خطبة الوداع.

وهي لازمة عظيمة الدلالة في مقامها ؛ لأنها لخَّصت حياة كاملة في ألفاظ معدودات ، فما كانت حياة النبي ﷺ كلها بعملها وقولها وحركتها وسكونها إلا حياة تبليغ وبلاغ ، وما كان لها من خاتمة أبلغ من قوله ﷺ وهو يجود بنفسه : " جلال ربي الرفيع فقد بلغت " (١)

ولصدق هذه الدلالة ترى أن الصفة الغالبة على أسلوب النبي ﷺ في كلامه المحفوظ بين أيدينا هي صفة البلاغ قبل كل صفة أخرى بل هي السمة الجامعة التي لا سمة غيرها ؛ لأنها أصل شامل لما تفرق من سمات هي منها بمثابة الفروع .

وكلام النبي ﷺ المحفوظ بين أيدينا : إما معاهدات ورسائل كتبت في حينها ، وإما خطب وأدعية ووصايا وأجوبة عن أسئلة كتبت بعد حينها ، وروعيت الدقة في المقارنة بين رواياتها جهد المستطاع .

والإبلاغ هو السمة المشتركة في مميزات هذا الكلام جميعاً حتى ما جرى منه مجرى القصص أو مجرى الدعاء الذي يعلمه المسلم ليدعو الله على مثاله .

---

(1) عن أنس أنه قال : " كَانَ آخِرُ مَا تَكَلَّم بِهِ جَلاَلُ رَبِّيَ الرَّفِيعُ فَقَدْ بَلَّغْتُ ثُمَّ قَضَى " [حديث ضعيف رواه الحاكم]

انظر مثلاً إلى قصة أصحاب الغار الثلاثة وتوسلهم بصالح الأعمال وهي كما جاء في مختار مسلم :

" بَيْنَمَا ثَلاثَةُ نَفَرٍ يَمْشُونَ أَخَذَهُمْ الْمَطَرُ فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ انْظُرُوا أَعْمَالا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ فَادْعُوا اللَّهَ بِهَا لَعَلَّهُ يُفَرِّجُهَا عَنْكُمْ قَالَ أَحَدُهُمْ اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ كُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ (رجعت ليلاً) حَلَبْتُ فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ بَنِيَّ وَإِنِّي اسْتَأْخَرْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا نَامَا فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ (يتألمون من الجوع) عِنْدَ قَدَمَيَّ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا فَرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ فَفَرَجَ اللَّهُ فَرَأَوْا السَّمَاءَ وَقَالَ الآخَرُ اللَّهُمَّ إِنَّهَا كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ فَطَلَبْتُ مِنْهَا فَأَبَتْ عَلَيَّ حَتَّى أَتَيْتُهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ فَبَغَيْتُ حَتَّى جَمَعْتُهَا فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ يَا عَبْدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تَفْتَحْ الْخَاتَمَ (كناية عن الجماع) إلا بِحَقِّهِ فَقُمْتُ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا فَرْجَةً فَفَرَجَ وَقَالَ الثَّالِثُ اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ (إناء) أَرُزٍّ فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ أَعْطِنِي حَقِّي فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَغِبَ عَنْهُ فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيَهَا فَجَاءَنِي فَقَالَ اتَّقِ اللَّهَ فَقُلْتُ اذْهَبْ إِلَى ذَلِكَ الْبَقَرِ وَرُعَاتِهَا فَخُذْ فَقَالَ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ فَخُذْ فَأَخَذَهُ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ مَا بَقِيَ فَفَرَجَ اللَّهُ "

[متفق عليه]

توجيه الأمراء والولاة

هذا أسلوبه ﷺ في التعليم بالقصص . فانظر إلى أسلوبه في توجيه الأمراء والولاة

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرًا .

ثُمَّ قَالَ : اُغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاَللَّهِ ، اُغْزُوا وَلا تَغُلُّوا (تجازوا الحد) وَلا تَغْدِرُوا وَلا تُمَثِّلُوا (تشوهوا جثث القتلى) وَلا تَقْتُلُوا وَلَيدًا .

وَإِذَا لَقِيت عَدُوَّك مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاثِ خِلالٍ ، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوك إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ ، وَكُفَّ عَنْهُمْ : اُدْعُهُمْ إِلَى الدُّخُولِ فِي الإِسْلامِ ، فَإِنْ فَعَلُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، ثُمَّ اُدْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ عَنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِأَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ ؛ فَإِنْ أَبَوْا (رفضوا) أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَلا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ (الخَراجُ) شَيْءٌ ، إلا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمْ الْجِزْيَةَ ، وَإِنْ هُمْ أَجَابُوك فَاقْبَلْ مِنْهُمْ ، وَكُفَّ عَنْهُمْ ، فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ ، وَإِذَا حَاصَرْت أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوك أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ (عهد) اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَك وَذِمَّةَ أَصْحَابِك، فَإِنَّكُمْ إنْ تَخْفِرُوا (تنقضوا) ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرْت أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوك أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَلا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِك، فَإِنَّك لا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لا " [صحيح مسلم]

وهذا أسلوبه ﷺ في تعليم الولاة بالأوامر والوصايا فانظر إلى أسلوبه في الرسائل من رسالته إلى النجاشي حيث قال : " سَلامٌ عَلَيْكَ ، فَإِنّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللّهَ الّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدّوسُ السّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ وَأَشْهَدُ أَنّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رُوحُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْبَتُولِ (العذراء) الطّيّبَةِ الْحَصِينَةِ (العفيفة) فَحَمَلَتْ بِعِيسَى فَخَلَقَهُ اللّهُ مِنْ رُوحِهِ وَنَفَخَهُ كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ وَإِنّي أَدْعُوكَ إِلَى اللّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالْمُوَالَاةِ عَلَى طَاعَتِهِ وَأَنْ تَتْبَعَنِي وَتُؤْمِنَ بِالّذِي جَاءَنِي فَإِنّي رَسُولُ اللّهِ وقد بَعَثْتُ إِلَيْكُم ابن عَمّي جَعْفَرًا ، وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنَ المُسْلِمِين ، فَإِذَا جَاءُوكَ فَاقْرِهم (أكرمهم) وَدَعْ التَّجَبُّر

فَإني أَدْعُوكَ وَجُنُودَكَ إلَى اللّهِ عَزّ وَجَلّ وَقَدْ بَلّغْتُ وَنَصَحْت فَاقْبَلُوا نَصِيحَتِي وَالسّلاَمُ عَلَى مَنْ اتّبَعَ الْهُدَى " [دلائل النبوة للبيهقي]

المعاهدات والمواثيق

أما أسلوبه في المعاهدات والمواثيق : فهذا جزء مما جاء في كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار واليهود .

" الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رِبْعَتِهِمْ (حالهم الذي كانوا عليه) يَتَعَاقَلُونَ بَيْنَهُمْ وَهُمْ يَفْدُونَ عَانِيَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

" وَبَنُو عَوْفٍ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمْ الأُولَى، كُلّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ .

وَبَنُو جُشَمٍ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلِهِمْ الأُولَى، وَكُلّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ... " [رواه ابن إسحاق بدون إسناد]

وهكذا إلى آخر الكتاب .

تلك نماذج من كلام النبي ﷺ في أربع أبواب مختلفات ، تتفرق موضوعاتها كما تتفرق القصص والأوامر والرسائل والمواثيق ، ولكنها كلها موصوفة بصفة واحدة لا اختلاف فيها ، وهي صفة البلاغ المبين ، لا غموض ولا غرابة ، وقلة الغريب – بل وندرته – في كلام النبي ﷺ أحق الأمور بالملاحظة في إقامة المثل والنماذج لأساليب البلاغة العربية .

فمحمد ﷺ العربي القرشي الناشئ في بني سعد ، العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة قبيلة بعيدة في أطراف الجزيرة ، لم يكن في كلامه كله غريب يجهله السامع ، أو يحتاج تبيانه إلى مراجعة ، وسر ذلك أنه يريد أن يبلغ أو يريد أن يصل إلى سامعه ، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزاً من اللفظ الغريب أو المعنى

الغريب ومن ذلك ما روي عنه ﷺ : أنه كان يعيد الكلمة ثلاثاً لتعقل عنه ، وأنه كان يبغض التكلف والاغترار بالبلاغة كما قال ﷺ : " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنْ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ تَخَلُّلَ الْبَاقِرَةِ (لفُّ البقرة) بِلِسَانِهَا " [صحيح رواه أحمد وأبو داود والترمذي]

وقد عُرِفَ عن النبي ﷺ في حياته الخاصة والعامة أنه كان قليل الكلام ، مغرضاً عن اللغو ، لا يقول إلا الحق وإن قاله في مزاح ، يخلو كلامه من الحشو والتكرار والزيادة ، فإذا كرر اللفظ نفسه كما جاء في بعض المعاهدات فذلك أسلوب ﷺ المعاهدات الذي لا محيص عنه ، لأن تكرار النص يمنع التأويل عند اختلافه ، فهو أيضاً سمة من سمات الإبلاغ على سبيل التوكيد والتحقيق ، أو على سبيل الإعادة التي روي أنه كان يتوخاها ﷺ أحياناً ليفهم عنه كلامه .

وفي كتابه إلى النجاشي زيادة من أسماء الله الحسني ومن الإشارة إلى المسيح وأمه لم تؤثر في الكتب الأخرى ، ولكنها ألزم ما يلزم في خطاب ملك مسيحي يراد منه أن يفهم كيف تتفق صفات الله والمسيح في دينه وفي دين المسلمين الذي يدعى إليه ، وهذا هو البلاغ في التعبير : كل كلمة تصل إلى سامعها ، وكل كلمة تصل إلى سامعها ، وكل كلمة مقصودة بمقدار . ولا زخرف ولا حيلة ولا مشقة في الوصول التأثير إلا الإبلاغ الذي يليق بالرجولة والكرامة ، وعلى المعْرِض بعد ذلك ذنب الإعراض .

سجع كحلية الذهب

كان ﷺ يكره " سجع الكهان " الذي يخدعون به السامع ليوهموه أنه يستمع إلى طلاسم (لفظ يوناني لكل ما هو غامض مبهم كالألغاز) السَحَرَة والشياطين ، ولكنه لم يكن يرفض السجع تماماً ولا يخلو كلامه من سجع يأتي بلا تكلف ، ويغلب أن يكون

ذلك فيما يُذاع علانية كالأذان ، وما هو في حكمه ، أو فيما يحفظ من الوصايا الجامعة كقوله ﷺ : " مَا بَالُ رِجَالٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ وَإِنْ كَانَ مِائَةَ شَرْطٍ قَضَاءُ اللَّهِ أَحَقُّ وَشَرْطُ اللَّهِ أَوْثَقُ وَإِنَّمَا الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ " [صحيح البخاري] أو قوله : " إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ وَوَأْدَ الْبَنَاتِ وَمَنَعَ وَهَاتِ وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ " [متفق عليه]

ومذهبة ﷺ في هذه الحلية اللطيفة مذهبه في كل حلية تليق بالرجال ، فسجعه ﷺ كحلية الذهب التي يليق بالرجل أن يتحلَّى بها.

كتب إليه أبو سفيان كتاباً يقول في آخره : " ... وقد جئنا إليك نريد نصف نخل المدينة، فإن أجبتنا إلى ذلك، وإلا أبشر بخراب الديار وقلع الآثار.

تجاوبت القبائل من نزار ... لنصر اللات في بيت الحرام وأقبلت الضراغم (الأسود) من قريش ... على خيل مسومة (المُعَلَّمَة) ضرام (إشعال النار) .

فأجابه برسالة جاء فيه : " وصل كتاب أهل الشرك والنفاق، والكفر والشقاق، وفهمت مقالتكم، فو الله ما لكم عندى جواب إلا أطراف الرماح وأشفار الصفاح (حدود السيوف) ، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام، وأبشروا بضرب الحسام (السيوف) وبغلق الهام (شق الرءوس) وخراب الديار، وقلع الآثار " (١)

فهذا السجع في هذا المقام أصلح لخطاب الجاهلين ؛ لأنهم يعرفون منه معنى التوثيق ، كما يعرفون منه القتال والتخويف . ومن هنا أقرَّ النبي ﷺ نص الحلف الذي كان بين جده وقبيلة خزاعة على ما كان به من سجع وتفخيم تعقد به المواثيق وتؤكد به الحرمات ، وهذا نصه :

---

(1) كتاب أبي سفيان هذا، وردُّ الرسول ﷺ عليه لا أصل صحيح لهما في كتب الحديث والسيرة.

" باسمك اللهم ، هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة حلفاً جامعاً غير مفرق : الأشياخ على الأشياخ ، والأصاغر على الأصاغر ، والشاهد على الغائب . قد تعاهدوا وتعاقدوا أوكد عهد ، وأوثق عقد ، لا ينقض ولا ينكث ما أشرقت شمس على ثبير (اسم جبل بمكة) وحن بفلاة بعير ، وما أقام الأخشبان (جبلان في مكة) واعتمر بمكة إنسان : حلف أبد لطول أمد ، يؤيده طلوع الشمس شدا ، والظلام مدا، وأن عبد المطلب وولده ومن معهم ورجال خزاعة متكافئون متضافرون متعاونون على عبد المطلب النصرة لهم بمن تابعهم على جميع العرب في شرق أو غرب ، أو حزن أو سهل ، وجعلوا الله على ذلك كفيلا ، وكفى به جميلا .. " (١)

هذه أمثلة السجع الذي تكلَّم به الرسول ﷺ أو أقرَّه من كلام غيره ، وهو بلاغ لا تكلُّف فيه ، وقد أعانه ﷺ على أسلوب الإبلاغ أن الذين كانوا يستمعون إليه إنما كانوا يستمعون إلى كلام نبي محبوب مطاع ، فهو نافذ في نفوسهم بغير حيلة ، مستجمع لأسماعهم بغير تشويق .

---

(1) ونص العهد كما ورد عند الواقدي : " بِاسْمِك اللّهُمّ هَذَا حِلْفُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ لِخُزَاعَةَ إذْ قَدِمَ عَلَيْهِ سَرَاتُهُمْ وَأَهْلُ الرّأْيِ غَائِبُهُمْ مُقِرّ بِمَا قَضَى عَلَيْهِ شَاهِدُهُمْ. إنّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ عُهُودَ اللّهِ وَعُقُودَهُ مَا لَا يَنْسَى أَبَدًا، وَلا يَأْتِي بِلَدّ الْيَدُ (اللد: الخصومة الشديدة) وَاحِدَةٌ وَالنّصْرُ وَاحِدٌ مَا أَشْرَق ثَبِيرٌ، وَثَبَتَ حِرَاءٌ، وَمَا بَلّ بَحْرٌ صُوفَةً لا يَزْدَادُ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إلا تَجَدّدًا أَبَدًا أَبَدًا، الدّهْرَ سَرْمَدًا ". فَقَرَأَهُ عَلَيْهِ أُبَيّ بْنُ كَعْبٍ فَقَالَ: "مَا أَعْرِفُنِي بِحِلْفِكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَى مَا أَسْلَمْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ الْحِلْفِ فَكُلّ حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيّةِ فَلَا يَزِيدُهُ الْإِسْلَامُ إلا شِدّةً وَلَا حِلْفَ فِي الإِسْلامِ". كتاب المغازي للواقدي ج ٢ ص ٧٨١، ٧٨٢

والعهد لا سند له إلا آخر جملة فيه فعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " لا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً " [صحيح مسلم وغيره]

أما رسائله إلى الملوك والأمراء ، ممن لم يسلم ولم يهتد ، فإنما كانت للإبلاغ أول الأمر ، ثم يأتي بعدها التفسير والتفصيل على ألسنة المرشدين والموكلين بالإجابة فيما يسألونه عنه ، فهي قائمة على الإبلاغ الذي لا إفراط فيه ولا تفريط .

ونقول إن الأمرين أعانا النبي ﷺ على أسلوبه المبلغ البليغ ولا نقول إنهما أنشآه فإن الحوار القليل الذي حفظ لنا من أيام الدعوة الأولى قبل انتشار الدين وإقبال الأتباع المؤمنين ، قد كانت له صيغة هذا الأسلوب بعينه غير ظاهر فيها أثر من الكلفة والاصطناع ؛ لأن مصدر الرجولة في البلاغ ثقته ﷺ بقوله لا ثقة المستمعين إليه ، فكلامه كله نظام واحد في هذه الصفة ، وخطابه كله خطاب سهولة وكرامة ، وسياقه كله سهل لا احتيال فيه ، ووصاياه لمن يقتدي به : أن يقصر الخطبة ، ويقول الكلام كما كان يقول لمن يبعث بهم من الولاة .

ولا يفهمن من هذا أن مقتضيات الكلام لم يكن لها أثر في اختلاف الوضع أو اختلاف الموقف وهو يخاطب الناس ؛ فقد كان ﷺ يلاحظ هذا الاختلاف ، ويعطيه حقه ، كما كان يفعل حين يتكئ على قوس وهو يخطب في الحرب ، أو يتكئ على العصا وهو يخطب في العظات ، وكان يبدو على وجهه ﷺ في خطبه ما يدور داخل صدره إذا غضب أو أنذر " كان إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلاَ صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ صَبَّحَكُمْ وَمسَّاكُمْ " (صحيح مسلم)

أسلوب عصري

ولمن شاء أن يحسب أسلوب النبي ﷺ ، كتاباً وخطاباً ، أسلوباً عصرياً يقتدي به المعاصرون في زماننا هذا وفي كل زمان ؛ لأن الأسلوب الذي يخرج من الفطرة المستقيمة هو أسلوب عصري في جميع العصور ، ويخطئ من يحسب الوصل بين الجمل شرطاً للكلام العربي القديم والفصل بينها علامة من علامات الأساليب المبتكرة في الزمن الأخير ويخطئ كذلك من يحسب قبول الكلام لإشارات الترقيم علامة أخرى

من علامات هذه الأساليب فإليك الحديث الذي نقلناه سابقاً وهو من أمثلة كثيرة يقول النبي ﷺ: " مَا بَالُ رِجَالٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ وَإِنْ كَانَ مِائَةَ شَرْطٍ قَضَاءُ اللَّهِ أَحَقُّ وَشَرْطُ اللَّهِ أَوْثَقُ وَإِنَّمَا الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ " [متفق عليه]

هذا الحديث رضي البلاغة العربية في وصله وفصله ، ورضي الأسلوب العصري في إشارات ترقيمه ، ودليل على خطأ الذين يفرقون بين شروط البلاغة العربية ذلك النحو من التفريق .

رأي النبي ﷺ في الشعر

وقد نقلت إلينا تعقيبات معدودة عن رأي النبي ﷺ في الشعر والشعراء لا يدخل في النقد الفني وإنما يدخل في كلام الأنبياء الذي يقيس الكلام بقياس الخير والصلاح والمطابقة لشعائر الدين وسنن الصدق والفضيلة ، ومنها قوله : " أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ : أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ " [متفقٌ عَلَيْهِ] وقوله عن امرئ القيس : " أنه صاحب لواء الشعراء إلى النار " (١)

وأنه كان يتمثل بشطرات من أبيات يبدِّل وزنها كلما أمكن تبديله مع بقاء المعنى المقصود فكان يقول ﷺ مثلاً : " وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ " (٢) لأنها لا تقبل التبديل مع بقاء المعنى ، ولكنه إذا نطق بقول سحيم عبد بني الحسحاس : " كفى

---

(1) عَنْ عُبَادَةَ بْنِ نُسَيٍّ ، قَالَ : ذَكَرُوا الشُّعَرَاء عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرُوا امْرَأَ الْقِيسِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَذْكُورٌ فِي الدُّنْيَا مَذْكُورٌ فِي الآخِرَةِ : حَامِلٌ لِوَاءَ الشِّعْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي جَهَنَّمَ ، أَو قَالَ فِي النَّارِ." [وهذا الحديث قال عنه الألباني : حديث مرسل ضعيف]

(2)عَنْ عَائِشَةَ قِيلَ لَهَا هَلْ كَانَ ﷺ يَتَمَثَّلُ بِشَيْءٍ مِنْ الشِّعْرِ قَالَتْ كَانَ يَتَمَثَّلُ بِشِعْرِ ابْنِ رَوَاحَةَ وَيَتَمَثَّلُ وَيَقُولُ وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ " [صحيح الترمذي]

الشيب والإسلام للمرء ناهياً " [1] قدم كلمة الإسلام فقال : " كفى الإسلام والشيب للمرء ناهياً " لينفي ما استطاع أنه شاعر ينظم القصيد ، وأن سور القرآن قصائد شعر مُرَتَّلات كما زعم المشركون .

وقد استحسن ما قيل من الشعر في الدفاع عن الإسلام وعنه ﷺ وعن آله ، فكانت آراؤه هذه وشبيهاتها آراء الأنبياء فيما يحمدون من كلام ؛ لأنهم قد بعثوا لتعليم الناس دروس الخير والصلاح ، ولم يبعثوا ليلقنوهم دروسهم في قواعد النقد والإنشاد .

جوامع الكلم

إلا إن البلاغ أقوى بلاغ في كلام النبي ﷺ هو: اجتماع المعاني الكبيرة في الكلمات القصيرة ، بل اجتماع العلوم الكاملة في بضع كلمات ، وقد يشرحها الشارحون في مجلدات .

ومن أمثلة ذلك : علم السلوك في الدنيا والدين وقد جمعه كله في أقل من سطرين قصيرين من قوله "احْرِث لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا وَاعْمَلْ لآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا" [2]

ومن أمثلته : علم السياسة الذي اجتمع كله في قوله " كما تكونوا يول عليكم " [1]

---

(1) هذا حديث مرسل ضعيف ونصه : عَنِ الْحَسَنِ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَمَثَّلُ بِهَذَا الْبَيْتِ " : كَفَى بِالإِسْلامِ وَالشَّيْبِ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا " ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّمَا قَالَ الشَّاعِرُ : كَفَى الشَّيْبُ وَالإِسْلامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : كَفَى بِالإِسْلامِ وَالشَيْبِ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا " ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا عَلَّمَكَ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَكَ . "

(2) هذا الأثر لا يثبت مرفوعاً إلى النبي ﷺ وإنما ثبت من كلام عبد الله بن عمرو بن العاص، كما في زوائد مسند الحارث للهيثمي : عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْعَيْزَارِ قَالَ لَقِيتُ شَيْخًا بِالرَّمْلِ مِنَ الأَعْرَابِ كَبِيرًا فَقُلْتُ لَهُ لَقِيتَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : نَعَمْ فَقُلْتُ مَنْ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فَقُلْتُ لَهُ فَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ ، قَالَ : سَمِعْتُهُ يَقُولُ احْرِزْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا وَاعْمَلْ لآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا .

فأي قاعدة من القواعد الأصيلة في سياسة الأمم لا تنطوي بين هذه الكلمات ؟

ينطوي فيها : إن الأمم مسئولة عن حكوماتها ، لا يعفيها من مسئولية ما تصنع تلك الحكومات جهل أو إكراه ؛ لأن الجهل جهلها الذي تعاقب عليه ، والإكراه ضعفها الذي تلقى جزاءه . وتشتمل على إن العبرة بأخلاق الأمة ، لا بالنظم التي تعلنها الحكومة ، فلا سبيل إلى الاستبداد بأمة تكره الاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين ، ولا سبيل إلى حرية أمة تجهل الحرية ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال .

وتشتمل على أن الولاية تابع وليست أصلاً فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم [٢] وأجدر ألا يغير الوالي قوماً حتى يتغيروا هم قبل ذلك .

ويشمل على : " أن الأمة مصدر السلطات " على حد تعبير الحديث . ويشتمل على : " أن الأمة تستحق الحكم الذي تصير إليه ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال.

ويلحق بهذا في العلم بالتبعات قول ﷺ : " أَشَدُّ بَلاءً قَالَ الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ " [حديث صحيح رواه أحمد] فالمزايا الإنسانية واجبات وأعباء ، وليست بالمتع والأزياء ، وعلم الإنسان بالخير والشر يفرض عليه الفرائض التي يبتلى بها ، ولا يهنئه بالراحة التي يتطلع إليها ، وهو محسوب عليه وكذلك ذكاؤه محسوب عليه . وأمثال هذه الأحاديث في أصول السياسة والأخلاق والاجتماع لا حصر لها في هذا المقام .

---

(1) هذا الحديث مرسل ضعيف والواقع يكذِّبه، فبرغم عدم تغير الشعوب أنه يتعاقب على حكمها الأخيار والفجار فقد خلف يزيد الفاسد الفاجر أباه معاوية الصحابي الجليل في خلافة المسلمين .

(2) يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١]

كان محمد ﷺ فصيح اللغة فصيح اللسان فصيح الأداء . وكان بليغاً مبلغاً أجمل ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية ، وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين بل قدوة المرسلين.

***